

غرضان أساسيان للأستاذ محمد محمد المدني

—>>>><<<<—

غرضان أساسيان يجب أن يرى إليهما كل من تهمة حالة الأمة الثقافية ، ويفار على مستقبل الدين والشريعة واللغة العربية ؛ ولا أعتقد - مهما تعددت الآراء ، وتعارضت الحجج أن أحدا ينزاع فيهما على الحقيقة ، أو يفض النظر عما يجنيه الأمة من إصابتهما .

هذان الغرضان هما :

١ - توحيد الثقافة العامة بين أبناء البلاد .

٢ - الاحتفاظ بما تفرقت به مصر - بفضل الأزهر -

من تخرج طائفة من العلماء بعضها يبرز في الدين ، وبعضها يبرز في الشريعة ، وبعضها يبرز في اللغة العربية .

والأول من هذين الغرضين أمر طبيعي بالنسبة للأمم ، ذلك بأن الأمة السعيدة الهائثة الثمرة التدبيرة على أن تؤدي رسالتها في الحياة ، هي الأمة المتقاربة ثقافة ، المنسجمة عقولا ، المتفاهمة أفرادا ، المتوحدة النظرة إلى نواحي الحياة . ولا تجد أمة تفرقت بها الأسباب في الدين أو اللغة أو الأفكار أو الآمال أو الآلام أو الغايات إلا كانت أمة مقضيا عليها بالقصور والضعف والخلول والتقطع والأخطاط والذلل .

والثاني من هذين الغرضين أمر عظيم قد نذبت له العناية الإلهية مصر من بين سائر الأمم ، وجعلته من أسباب زعامتها على العالم العربي ، وكان لها ذكرا في الأولين ، وسبقي لها - إن شاء الله - لسان صدق في الآخرين .

على هذا الأساس يجب أن يدور الكلام ، وبهذا الميزان يجب أن توزن الآراء ، فالنظام الذي يستطيع معه الأزهر أن يحقق هذين الغرضين ، هو النظام الحسن القبول ، وأي نظام يظلم أحدهما أو كليهما يجدر بنا أن ننظر إليه في احتياط وحذر .

والأستاذان الكبيران : الزيات والمقاد ، يقران هذا ، فهما حين يدعوان إلى توحيد الثقافة العامة لا يفضان النظر عن رسالة الأزهر ، ولا عن حاجة الأمة الإسلامية لهذه الرسالة .

فالأستاذ الزيات يقول : « إن العالم لا يسعد إلا بالدين ، وإن الدين لا يبجد إلا بالأزهر ، وإن الأزهر متى استكمل أداة

التعليم ، وسائر حاجة المصر ، نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ؛ تنشأ من قواه ، وتقوم على مزاياه وتتغلغل في أصوله . ذلك لأز ثقافته المشتقة من مصدر الرحي وقانون الطبيعة متى انصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هي وهو ، فيكون من هذا التفاعل ما يريد الله به تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره » .

والأستاذ المقار يقول : « الجامعة الأزهرية معهد يراد به البقاء ، ما في ذلك ريب عند أحد من المصريين ، لأنها مرجع العلوم الدينية والثقافة العربية ، وهي عدا هذا أدم جامعة في العالم بأسره ، فالأمة التي تملكها تينة أن تحافظ عليها ، وتستديم بقاءها وازدهارها » .

ويقول حين يعرض للمدارس الفكرية الإسلامية ومحوها العظيم : « إن هذا المحصول لا يعقل أن يستوفيه طلاب جامعة من جامعات الدنيا غير الجامعة الأزهرية ... وإنه أمانة لا بد لها من حفيظ بين أم الحضارة الإنسانية ؛ فن عساه يكون أولى بحفظ هذه الأمانة من معاهد الأزهر وعلمائه ؟ ومن أين لهذه المذاهب وهذه الدراسات من يفهمها ويصبر على تحصيلها واستخلاص زبدتها في غير مصر والبلاد العربية ... وليس في غير المهاد الأزهرية مكان لاستيفاء هذه الواجبات والأعمال » .

فقيم إذن الخلاف ، وقد انفقنا على القاعدة والأساس ؟

١ - لقد أظهرت التجارب أن الدين والشريعة الإسلامية واللغة العربية لا يمكن دراستها دراسة عالية لها حظ من التبريز والتفوق ، ما لم يسبق ذلك إعداد خاص وتكوين معين يستطيع معهما الطالب أن يخوض هذا المجال . ومن تلك التجارب التي أصبحت معروفة مشهورة مسلما بها أن طلاب دار العلوم وطلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب إنما يفلح منهم ويتقدم في طريقه بخطى ثابتة ، أولئك الذين درسوا دراسة أزهريه حتى نالوا الشهادة الثانوية ، أما الذين درسوا على نظام التجهيزية أو الذين حصلوا على الشهادة الثانوية الحكومية فأنهم يلاقون الأمرين في دراستهم للغة العربية ، ويحملون منها وتحمل منهم عبأ ثقيل يود كلاهما لو استطاع أن يتخفف منه . وقل مثل ذلك في طلاب كلية الحقوق فأنهم لا يزالون يعتبرون دروس الشريعة الإسلامية أشق الدروس لا فرق في ذلك بين من لم يحصلوا على الليسانس ومن حصلوا عليها والتحقوا بقسم الدكتوراه ، وما ذلك إلا لأنهم لم يتعمروا بما يتمرس به الطلاب الأزهريون في دراستهم الابتدائية والثانوية

تحقق النرضين : توحيد الثقافة العامة ، والتمهيد للدراسة الأزهرية الثانوية والمالية .

قد يظن بعض الناس أن الطالب الأزهرى الابتدائى إنما يدرس بعض الأحكام الفقهية ، وبعض العقائد الدينية ، وبعض كتب اللغة العربية ، وأنه إنما يتلقى إلى جانب ذلك تجويد القرآن وطرفاً من سيرة الرسول والصحابة ، أما ما وراء ذلك من مواد الثقافة العامة فهو منها محروم ، ولذلك نسمع النداء بوجوب توحيد الثقافة العامة كأن الأزهر يعيش فى صومعة ، ولا يشارك فى دنيا الناس ! كلا أيها القراء : إن الأزهر فى معاهده الابتدائية يدرس على منهاج جامع شامل لا يذكر بجانبه منهاج المدارس الابتدائية ؛ وبين يدي الآن هذا منهاج الأزهرى ، ولو استطلعت لنقلت لكم صورة منه ، ولكنى أقرب اليكم تقريباً :

مواد الدراسة بالقسم الابتدائى على وجه الإجمال هى : الفقه بمذاهبه الأربعة . التوحيد ، السيرة النبوية وسيرة كبار الصحابة تجويد القرآن الكريم ، الإنشاء ، النحو . الصرف . الإملاء . الطائفة والمحفوظات . التاريخ . الجغرافيا . الحساب . الهندسة . الجبر . تدير الصحة . الرسم . الخط .

ففى الفقه يقرأ كتابان أحدهما صنير فى السنة الأولى ، والآخر أكبر منه فى السنوات التى تليها ، وفى النحو تقرأ كتب أربعة : الأجرومية وشرحها ، والأزهرية ، وشرح القطر ، وشدور الذهب ؛ وفى الصرف يقرأ كتاب متوسط فى سنتين ، والتوحيد يقرأ فى ثلاث سنوات ، وفى التاريخ تدرس كل الموضوعات التى يدرسها تلاميذ المدارس الابتدائية من تاريخ مصر القديم والحديث بوسع ؛ وتزيد المعاهد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة ، والحساب فى المعاهد أوسع جداً من الحساب فى المدارس ، وقل ذلك عن الهندسة والجغرافيا وتدير الصحة ... الخ .

فإذا بقى على الطالب الأزهرى فى المعاهد الابتدائية من مواد الثقافة العامة حتى ينادى المنادون بضرورة استكمالها ؟ لم يبق إلا اللغة الأجنبية ، واستأنجد مانما من إدخالها فى المعاهد الدينية ، بل نحن نرى ذلك واجباً فلينخفف عن الطالب الأزهرى كتابان من كتب النحو الأربعة مثلاً ، ليعطى بدلها لغة أجنبية فى سنتيه الثالثة والرابعة كما يعطى تلاميذ المدارس ، وحينئذ تكون معاهد الأزهر الابتدائية قد أعطت الأمانة طلاباً يشاركون فى ثقافتها العامة

ولم يعودوا البحث والفهم الاستقلالى وتلقى كتب الشريعة كما عود الأزهريون .

على أن الطالب الأزهرى نفسه إذا لم يكن قد أتمن دراسته الابتدائية والثانوية ، وكون بها عقله تكوين فهم واستقلال ، فإنه يمانى فى الكليات ومعنى ، وقد لا يتمكن من الاستمرار فى هذه الدراسات البلى .

٢ - والمدارس الثانوية التابعة لوزارة المعارف مكتظة بالبرامج فى كل ناحية إلا فى النواحي التى تمد للدراسة الأزهرية العليا . والتعليم الثانوى مع ذلك موضع شكوى عامة لضعفه ، فإن جميع كليات الجامعة تشكو من هذا الضعف « الذى تبدو آثاره فى المعلومات العامة واللغات العربية والأجنبية » وتشكو من « أن الطلبة لا تتحقق فيهم الصفات المطلوبة للدراسة المالية من حيث روح التعقل وقوة الملاحظة والاعتماد على النفس وحب البحث ، حتى إنهم يضطرون أساتذتهم إلى إملاء الدروس عليهم إملاء مما يعوق سير الدراسة المالية فى صورتها الكاملة »

بذلك تشهد تقارير وزارة المعارف نفسها ، ومنها نقلت ما نقلت من النصوص ؛ فإذا أردنا أن نقوى هذا الطالب فى دراسته الثانوية ليكون قادراً على الدراسة فى الكليات الأزهرية فإذا نصنع معه ؟ والفروض أن هذا الطالب لم يدرس على الطريقة الأزهرية فيما تلقى من التعليم الابتدائى ، وأنه لم يربد علوم الأزهر ولم يألف أساليبه فى البحث والدرس : أنضيف إليه أعباء أخرى فوق أعبائه التى بنو بها كاهله ؟ أنكلفه بدراسة النحو والصرف والبلاغة والفقه والتوحيد والمنطق والروض وما إليها من العلوم التى لا بد من حصول الطالب الأزهرى على قسط وافرها يحيط به إحاطة فهم وتدبر ، وبهضمه عن تعقل وتصرف ؟ وهل يؤدى ذلك إلا إلى ضياعه من الناحيتين ، واشتداد ضعفه ؟

وهبنا أزمنا درس هذه العلوم الأزهرية إلى جانب منهاجه الحكومى ، أفندرسها له بمقدار ما كان فى التعليم الابتدائى الأزهرى فنزل بالمستوى الثانوى إلى المستوى الابتدائى ؟ أم بمقدار منهاج الثانوى فكيف ببطيقه ؟

٣ - ومن حق القراء علينا أن نذكر لهم هنا منهاج المعاهد الأزهرية الابتدائية ليعلموا : أتفى عنها المدارس الابتدائية الحكومية فلنفيها من الأزهر ؟ أم هى معاهد واجبة البقاء لأنها

إلا معارف سطحية لا تهمن ولا تغني من جوع ؟
٤ - أما الدراسة الثانوية في الأزهر ، فقد كانت عدلت
مناهجها يوماً ما لتكون مشابهة تمام المشابهة لمناهج المدارس
الثانوية بزيادة العلوم الدينية واللغوية والعقلية ؛ فلما طبق هذا
النظام بدأ وجه الخطأ فيه سائراً ، فقد طفت علوم المدارس على
العلوم الأزهرية ، وعلى روح التفكير والاستقلال في البحث
المقصود بها في نفوس الطلاب ، وحينئذ لم يجد الأزهر بدأ من
إنهاء ذلك النظام وإحلال النظام الحالي مكانه ، وهو نظام لم يقطع
الصلة بين الطالب الأزهرى وبين مواد الدراسة الثانوية المدرسية
قطماً ، ولكنه زحزح هذه المواد عن مركز الصدارة ليفتح
لعلوم الدين والشريعة واللغة والعلوم العقلية مجالاً لا تجده في غير
هذه الماهد ، وهذا من غير شك تصرف حكيم ، على أن يضاف
إلى برامجها أيضاً دراسة اللغة الأجنبية كما في المدارس الثانوية .

هذا هو رأي الذي وعدت به في مقالتي السابق ، وأعتقد أني قريت
به من شقة الخلاف ، بل لعل أزلت أسباب الخلاف ، وما كان
الأستاذ الزيات ، وهو الذي يعب على الأزهر الضعف ، وتعطيل
العقل ، وإبطال الاجتهاد ، ورجو بالأزهر تجديد الدين ، ونهضة
الشرق عن طريق ثقافته المشتقة من مصدر الوحي وقانون الطبيعة ؛
ما كان ليرضى أن يُبتر الأزهر هذه البتة التكرار ، أو أن يجادل
في الحق بما تبين ؛ وذلك أيضاً ما اعتقده في الأستاذ الكبير
المقاد الذي يتحدث عن العقلية الأزهرية حديث الاعتراف
والإعجاب ، وما كانت العقلية الأزهرية لتفوز بهذا الاعتراف
وهذا الإعجاب لو نشئت في المدارس الابتدائية .

أما بعد ، فإن الأزهر - كما قلت في مقالتي السابق - لا يحتاج
إلى تعديل جوهرى في نظامه الحاضر ، وإنما يحتاج إلى « تنفيذ »
معنى وروحاً بأيد قوية حازمة ، وأعين بصيرة ، وقلوب مؤمنة ،
وعقول على التدبير له والتفكير في شأنه مقصورة ... وفي ذلك
فليتنافس المتنافسون ...

محمد محمد المدنى

(الرسالة) : يوافقتنا صديقنا الأستاذ المدنى على الترسين القهوين من
اقتراح الرسالة وما : « تجديد الأزهر وتوحيد التعليم على الوجه الذى يحفظ
للأزهر طابعه ولائمة وحدتها ، ولكنه يخالفنا في التطبيق . وأرى أن
الناقشة في تطبيق المبدأ قبل إقراره عنده لا يجدى ، وبناء لا يقوم .

ويعتازون بعلوم الشريعة والدين واللغة على طريقتهم الخاصة التى
لا غنى لهم في أقسامهم الثانوية ولا في دراساتهم العالية عنها .

فإذا قيل : إن هذا النهج المزيج ثقيل على الطالب فإننا
نقول : إن طالب الأزهر ليس كتلميذ المدرسة الابتدائية ؛ فالأول
ياتحق بمعهده بين الثانية عشرة والسادسة عشرة بينما يلتحق
الثانى بين الثامنة والعاشر ، فهذا الفرق في السن يجعل الطالب
ناضجاً قادراً على تحصيل ما يكلف تحصيله من هذه العلوم في سهولة
ويسر ، ولذلك مزية أخرى هي أن طالب الأزهر يستطيع في الفترة
الأولى من حياته وقبل انتسابه إلى معهده أن يتفرغ لحفظ القرآن
الكريم الذى هو شرط أساسى لقبوله ، والذى هو أمر ضرورى
لطالب الدين والشريعة واللغة : يقوم لسانه ، ويصاح لهجته :
ويضبط لفته ، ويكون مرجعه الملازم له في العقائد والآداب
والأحكام ، بل يكون له طول حياته كترأ لا يفنى ، وممينا
لا ينضب .

وقد دلت التجارب على أن من لم يحفظ القرآن الكريم في أول
حياته وعهد صباه البكر ، فلن يستطيع حفظه بعد ذلك . وليس
من الممكن أن يستكمل التلميذ في المدرسة الابتدائية علومه ولقته
الأجنبية ثم يكلف في أثناء دراسته الثانوية أن يحفظ القرآن .

هذا ، وفي الماهد الدينية بعد ذلك معنى لا يفنى أن تنساه :
ذلك هو تربية الطالب تربية دينية يستمد منها من هذه المصادر التى
يعتمد عليها في دراسته من كتاب وسنة وعقائد وأخلاق وأحكام
نشرية وكتب تغلب عليها الروح الإسلامية ، وتفرس في نفسه
حب الدين واحترام الشريعة وتقديسها ، فيشرب على ذلك ويشرب
عليه ، وبذلك نكون قد أوجدنا طائفة من مثقفينا تتحمس للدين
والخلق الإسلامى الكريم ، وتغار على علومنا وآدابنا القومية في
وسط هذه التيارات المضطربة الجامعة التى تهدد كياناتنا ، وتكاد
تقطع الصلة بيننا وبين ماضينا المجيد . وقد أدرك هذا المعنى غيرنا
من رجال الأديان الأخرى ، فهم يبكرون بإعداد رجل الدين منذ
نومة أطفاله ليضمنوا له التحمس الدينى والانفعال الروحى على
صورة نصابه طول حياته ، لأنها تكون قد ارتسخت في نفسه ،
وصادقت منه قلباً خالياً فتمكنت كما يقولون . فأين لنا مثل ذلك
إذا اعتمدنا على تلميذ المدرسة الابتدائية ، وهو لا يعرف من دينه